مفسدات القلب

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القلب محل نظر الله عز وجل، فهو سبحانه لا ينظر إلى صورنا ولا إلى أجسامنا، وإنما ينظر إلى قلوبنا، وأعمالنا، وما دام الأمر كذلك فلا بد من الحفاظ على القلوب، والعناية بها حتى تكون سليمة من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، وقد عد العلامة ابن القيم عليه رحمة الله خمس مفسدات يمكن أن تفسد القلب، ومن هذه المفسدات:

أولاً: كثرة المخالطة؛ فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسودّ، يوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة لمصالحة والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟ هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ ... وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ويعض المخلط عليها يديه ندما كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29]. ولكن ليس كل خلطة ضارة فمنها ما هو نافع ومفيد ولا بد.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير؛ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم والجهاد، والتضحية، ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم؛ فإنهم لا بد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين.[1]

ثانياً: ركوب القلب بحر التمني، وهذا بحر لا ساحل له، وهو البحر

الـذي يركبـه مفـاليس العـالم؛ كمـا قيـل: إن المـنى رأس أمـوال المفـاليس، وبضـاعة ركابـه مواعيـد الشـيطان، وخيـالات المحـال والبهتان. فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كمـا تتلاعب الكلاب بالجيفـة، وهي بضـاعة كـل نفس مهينـة وخسيسة سفلية.. وصاحب الهمـة العامـة أمانيـه حائمـة حـول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيـه من جـواره. فأمـاني هذا إيمان ونور وحكمة.. وأماني أولئك خدع وغرور..[2]

ثالثـاً: التعلـق بغـير الله- تبـارك وتعـالى-، وهـذا من أعظم مفسـداته على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع لـه عن مصـالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير اللـه وكلـه اللـه إلى مـا تعلـق بـه، وخذله من جهة ما تعلق بـه، وفاتـه تحصـيل مقصـوده من اللـه عـز وجل بتعلقـه بغـيره، والتفاتـه إلى سـواه، فلا على نصـيبه من اللـه حصل ولا إلى ما أمله ممن تعلق وصل، قال الله: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}[مريم: 81، 82]، فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإنمـا فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصـل لـه ممن تعلـق به، وهو معرض للزوال والفوات، وقلب المتعلـق بغـير اللـه؛ كمثـل المستظل من الحر والبر ببيت العنكبوت أوهن البيوت.

رابعـاً: الطعـام (التوسـع فيه)، والمفسـد لـه - أي القلب- من ذلـك نوعان:

أحدهما: ما يفسده لعينه، وذاته كالمحرمـات، وهي نوعـان: محرمـات لحـق اللـه، كالميتـة والـدم ولحم الخـنزير.. ومحرمـات لحـق العبـاد، كالمسروق والمغصوب، والمنهوب.. وما أخذه بغير رضـا صـاحبه إمـا قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثـاني: مـا يفسـده بقـدره، وتعـدي حـده، كالإسـراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعـات، ويشـغله بمزاولـة مؤنـة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بهـا، فـإذا ظفـر بهـا شـغله بمزاولـة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذي بثقلها، وقوى عليه مواد الشـهوة، وطرق مجاري الشيطان ووسعها.. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً فنـام كثيراً فخسر كثيراً. وفي الحديث المشهور: ((ما ملأ آدمي وعاءً شـراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامـه وثلث لشـرابه، وثلث لنفسه))[3].. ويحكى أن إبليس عرض ليحيى بن زكريا عليهما السلام فقال له يحيى: هل نلت مـني شيئاً قط؟ قال: لا إلا أنه قدّم إليك الطعام ليلة فشهيته إليـك حـتى شبعت منه، فنمت عن وردك، فقال يحيى: لله عليّ أن لا أشـبع من طعام أبداً، فقال إبليس: وأنا لله علي أن لا أنصح آدمياً أبداً.

خامساً: كثرة النوم، فإنه يميت القلب، ويقتل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة، والكسل... وكلما قرب النوم من الطـرفين قـل

نفعه وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران، ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر، وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير، وهو مقدار ثمان ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافا بحسبه.[4]

ويمكن حماية هذا القلب من هذه المفسدات، بالابتعاد عنها، وفعل كل ما يكون به صلاح هذا القلب. نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا، وأن يلهمنا رشدنا وأن يقينا شرور أنفسنا، إنه نعم المولى ونعم النصير. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

1 انظر: مدارج السالكين (1/455 -456).
2 انظر: مدارج السالكين (1/456 - 457).
3 صححه الألباني في الصحيحة برقم (2265).
4 انظر: " مدارج السالكين" (1/457-459) بتصرف.